الفصل الثلاثون

مرض النبى ووفاته ﷺ

تفكيره فى غزو الروم - جيش أسامة - بدء مرض النبى ﷺ - ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل أحد - شكواه من وجع رأسه - الحمى - أمره أبا بكر أن يصلى بالناس - صحو الموت - اختيار الرفيق الأعلى.

حجة الوداع:

تمّت حِجَّة الوداع وآن لعشرات الألوف ممن صحبوا النبىَّ فيها أن يعودوا إلى ديارهم، فأنجد منهم أهل نجد، وأتْهم أهل تِهامة، وانحدر إلى الجنوب أهل اليمن وحضرموت وما حاذاها. وسار النبى ﷺ وأصحابه ميممين المدينة حتى إذا بلغوها أقاموا بها فى أمن من شبه الجزيرة كلها، وفى تفكير متصل من جانب محمد ﷺ فى أمر البلاد الخاضعة للروم والفرس بالشام ومصر والعراق. فهو قد أمِن من ناحية شبه جزيرة العرب جمعاء بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وبعد أن جعلت الوفود تُقْبِل تَتْرَى إلى يثرب تُعلن الطاعة وتتفيأ ظِلاَلَهَا تحت لواء الإسلام، بعد أن انحاز العرب جميعًا إليه فى حِجَّة الوداع. وكيف لا يُخْلِص ملوك العرب فى ولائهم للنبىّ ﷺ ولدينه ولم يُبْقِ لهم أحد ما أبقاه لهم النبىّ الأمىّ من سلطان واستقلال ذاتى. أوَ لم يُبْقِ بَذْهان عامل فارس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بَذْهان إسلامَه وحرص على وحدة العرب وألقى نِيرَ المجوس؟ ولم يكن ما يقوم به بعضهم فى أنحاء من شبه الجزيرة من حركات تُشبه الانتقاض ليستغرق من النبى شيئًا من التفكير أو ليثير فى نفسه شيئًا من المخاوف، بعد أن انبسط سلطان الدين الجديد على كل الأنحاء، وعَنت الوجوه للحىّ القيوم، وآمنت القلوب بالله الواحد القهار.

مدعو النبوة طليحة والأسود ومسيلمة:

لذلك لم يُثِرْ قيامُ الذين قاموا إذ ذاك يدَّعون النبوَّة عناية محمد ولا اهتمامه. صحيح أن بعض القبائل القاصية عن مكة كانت تسرع، بعد الذى عرفت عن محمد ونجاح دعوته، إلى الاستماع لمدَّعى النبوَّة من أهل قبيلتهم، وتودُّ لو يكون لها من الحظ ما أوتيت قريش، وأن هذه القبائل كانت لبعدها عن مقرّ الدين الجديد لا تعرف كل أمره. لكن الدعوة الحق إلى الله كانت قد تأصلت فى بلاد العرب، فلم تكن مقاومتها أمرًا يسيرًا. وما لاقى محمد ﷺ فى سبيل هذه الدعوة كان قد انتشر فى الآفاق خبره، ولم يكن مستطاعًا لغير ابن عبد الله احتماله. وكل ادّعاء أساسُه البهتان لا مفرّ أن ينكشف سريعًا بهتانه. فكل ادّعاء للنبوَّة لم يكن مقدَّرًا له أى نجاح ذى بال. قام طُلَيْحة، زعيم

بنى أسد وأحد أشاوس العرب فى الحرب ومن ذوى السلطان بنجد، وزعم أنه نبى ورسول، وأيَّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم. لكنه بقى خائفًا من الانتقاض على محمد طوال حياة محمد. ولم يعلن الثورة إلا بعد أن قبض الله إليه رسوله. وهزم ابن الوليد طليحة فى ثورته هذه. فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه. ولم يكن مُسَيْلِمة ولا كان الأسود العَنْسىّ خيرًا مكانًا من طليحة طِيلة حياة النبى. بعث مسيلمة إلى النبى ﷺ يقول: إنه نبىٌّ مثله، «وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم لا يعدِلون». فلما تلا الخطاب نظر النبى ﷺ لرسولَىْ مسيلمة وأبدى لهما أنه كان يأمر بقتلهما لولا أنَّ الرسل فى أمن، ثم أجاب مسيلمة بأنه سمع إلى كتابه وما فيه من كذب، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين. والسلام على من اتبع الهدى.

وأمَّا الأسود العَنْسىّ، صاحب اليمن بعد موت بَذْهان، فقد جعل يدَّعى السحر ويدعو الناس إليه خفية، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرَد عمال محمد ﷺ على اليمن، وتقدَّم إلى نَجْرَان وقتل فيها ابن بذهان ووارثَ عرشه، وبنى بزوجه، ونشر فى تلك الأصقاع سلطانه. ولم يُثر استفحالُ أمره عناية محمد ﷺ، ولا استدعى من اهتمامه أكثر من أن بعث إلى عمَّاله باليمن كى يحيطوا بالأسود أو يقتلوه. ونجح المسلمون فى تأليب اليمن من جديد على الأسود، وقتلته زوجه انتقامًا منه لقتله زوجها الأوَّل ابن بذهان.

التفكير فى غزو الروم:

كان تفكير محمد ﷺ وكانت عنايته متجهين إذًا إلى الشمال بعد عوده من حجة الوداع، وكان من ناحية الجنوب آمنًا مطمئنا. والحق أنه منذ غزوة مُؤْتة، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالإياب، مكتفين بما أبدى خالد بن الوليد من مهارة فى الانسحاب، كان محمد يحسب لناحية الروم حسابها، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جَلَوْا عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوئون أهلَها. ولهذا جهَّز الجيش العَرِم الذى جهَّز حين بلغه تفكير الروم فى مهاجمة حدود شبه الجزيرة، وسار هو على رأسه حتى بلغ تبوك، فألفى الروم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيبته. لكنه مع هذا ظلَّ يقدِّر لناحية الشمال أن تثور الذكريات بحماة المسيحية وأصحاب الغَلَب فى ذلك العصر من أهل الإمبراطورية الروميَّة، فيعلنوا الحرب على من أجْلَوا النصرانية عن نَجْرَان وغير نجران من أنحاء بلاد العرب. لذلك لم يَطُلْ بالمسلمين المُقام بالمدينة بعد عودهم من حِجَّة الوداع بمكة حتى أمر النبىّ بتجهيز جيش عرم إلى الشام، جعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر، وأمَّر على الجيش أسامة بن زيد بن حارثة.

وصية النبى ﷺ لأسامة:

وكان أسامة بن زيد يومئذ حدَثًا لا يكاد يعدو العشرين من سنّه، فكان لإمارته على المتقدمين الأوّلين من المهاجرين ومن كبار الصحابة ما أثار دهشة النفوس لولا إيمانها الصادق برسول الله. والنبىّ إنما أراد بتعيين أسامة بن زيد أن يقيمه مقام أبيه الذى استشهد فى موقعة مؤتة، وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد، وما يبعث إلى جانب ذلك فى نفس الشباب الهمة والحميَّة، ويعوّدهم الاضطلاع بأعباء أجسم التبِعات. وأمر محمد أسامة أن يُوطِئ الخيل تُخوم البَلْقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مُؤْتة حيث قُتل أبوه، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عَمَاية الصبح، وأن يُمعن فيهم قتلا، وأن يُحرقهم بالنار، وأن يتمّ ذلك بِرَاكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه. فإذا أتمّ الله النّصر لم يُطِل بقاءه بينهم، وعاد غانمًا مظفرًا.

وخرج أسامة والجيش معه إلى الجُرْف (على مقربة من المدينة) يتجهّزون للسفر إلى فلسطين.

مرض الرسول ﷺ وحيلولة ذلك دون مسيرة الجيش:

وإنهم لفى جهازهم إذ حال مرض رسول الله ﷺ، ثم اشتداد المرض به، دون مسيرهم. وقد يسأل إنسان: كيف يحول مرض رسول الله ﷺ دون مسيرة جيش أمر بجهازه وسفره؟ لكن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أيامًا طويلة ليست بالأمر الهين ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبى أحبّ إليهم من أنفسهم، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض. ثم إنهم لم يعرفوا قط من قبل أنه شكا مرضًا ذا بال، فهو لم يُصَبْ من المرض بأكثر من فقد الشهيَّة فى السنة السادسة من الهجرة حين قيل كذبًا إن اليهود سحروه، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة فى السنة السابعة من الهجرة. ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتّبعها عن المرض. فهذا الزهد فى الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطة فى الملبس والعيش، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبها محمد ويحرص عليها، حتى لَيقول: إنه لولا خيفته أن يشق على قومه لفرض عليهم السِّواك فى اليوم خمس مرات، وهذا النشاط الدائم؛ نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى. وهذا القصد فى كل شىء، وفى الملذات قبل كل شىء. وهذا السموّ عن عبث الأهواء، وهذه الرفعة النفسيَّة لا تُدانيها رفعة. وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون فى خير صور الحياة وأدق أسرار الكون – هذا كله يجنب صاحبه المرض ويجعل الصحة بعض حظه. فإذا كان سليمَ التكوين، قوى الخَلْق، كما كان محمد، جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلا. فإذا مرض كان طبيعيًّا أن يخاف محبوه وأصحابه، وكان طبيعيًّا أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتابعة. فهو منذ بدأ يجهر بدعوته فى مكة مناديًا الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وبترك الأصنام مما كان

يعبد آباؤهم، قد لقى من العنت ما تنوء به النفوس مما شتّت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشة، وما اضطرّه للاحتماء بشعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته. وهو حين هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة قد هاجر فى أدقّ الأحوال وأشدها تعرُّضًا للخطر، وهاجر وهو لا يعرف ما قدر له بالمدينة. وقد كان بها فى الفترة الأولى من مُقامه موضع دسّ اليهود وعبثهم. فلما نصره الله وأذِن أن يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيرة فى دين الله أفواجًا، ازداد عمله وتضاعف مجهوده وظلّ تعهُّدُ ذلك كله يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبة أولى القوة، وإن له – عليه الصلاة والسلام – فى بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان. وأىُّ موقف أشدُّ هولاً من موقفه يوم أُحد حين ولى المسلمون، وسار هو يصعد فى الجبل ورجال قريش يشتدُّون فى تتبعه، ويرمونه حتى كسرت رَبَاعِيتُه؛ وأى موقف أشدُّ هولاً من موقفه يوم حُنَين حين ارتدَّ المسلمون فى عماية الصبح مولّين الأدبار، حتى قال أبو سفيان: إن البحر وحده هو الذى يردّهم، ومحمد واقف لا يرتد ولا يتراجع وينادى فى المسلمين: إلى أين، إلى أين! إلىّ إلىّ، حتى عادوا وحتى انتصروا!. والرسالة! والوحى! وهذا المجهود الروحى المضنى فى اتصاله بسرّ الكون وبالملأ الأعلى، هذا المجهود الذى رُوى بسببه عن النبىّ أنه قال: شيَّبتنى هودٌ وأخواتها! رأى أصحاب محمد هذا كله، ورأوه يحمل العبء صُلْبًا قويًّا لا يعرف المرض إليه طريقًا. فإذا مَرِض من بعد ذلك، فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهَّلوا فى السير من معسكرهم بالجُرْف إلى الشام، حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله.

خطاب النبى ﷺ أهل المقابر:

وحادثٌ وقع جعلهم أشد خوفًا، فقد أرِق محمد ﷺ ليلةً أوّل ما بدأ يشكو وطال أرقه، وحدّثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام، أيام الصيف الرقيقة النسيم، فيما حول المدينة، وخرج ولم يستصحب معه أحدًا إلا مولاه أبا مُوَيْهبة. أفتدرى أين ذهب؟ ذهب إلى بقيع الغَرْقَد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة. فلمَّا وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها: «السلامُ عليكم يأهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفِتَن كقِطَع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلها، الآخرة شرٌّ من الأولى». حدّث أبو مُوَيْهبة أن النبىّ ﷺ قال له أوّل ما بلغا بقيع الغَرْقَد: «إنى أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معى». فلمَّا استغفر لهم وآن له أن يؤوب، أقبل على أبى مويهبة فقال له: «يا أبا مويهبة، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخُلود فيها ثم الجنة، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة». قال أبو مويهبة: بأبى أنت وأمى! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال محمد: «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترتُ لقاءَ ربى والجنَّة».

تحدّث أبو مويهبة بما رأى وما سمع؛ لأن النبىّ ﷺ بدأ يشكو المرض غداة تلك الليلة التى زار فيها البقيع، فاشتد خوفُ الناس ولم يتحرّك جيش أسامة. صحيح أن هذا الحديث الذى يُرْوَى عن

أبي مُوَيْهبة يلقاه بعض المؤرخين بشيء من الشك، ويذكرون أن مرض محمد ﷺ لم يكن وحده هو الذى حال دون تحرّك الجيش إلى فلسطين، وأن تَذمرَ الكثيرين من تعيين حَدَث كأسامة على رأس جيش يضم جِلّة المهاجرين الأوّلين والأنصار، كان أكبر من مرض محمد فى عدم تحرُّك الجيش أثرًا. وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون فى تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارئ فى هذا الفصل. وإذا كنا لا نناقش أصحاب هذا الرأى رأيهم فى تفاصيل هذا الذى روى أبو مويهبة، فإننا لا نرى مسوّغًا لإنكار الحادث من أساسه، وإنكار ذهاب النبىّ إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنية ودقة إدراكه اقتراب ساعته، ساعة الدنو من جوار الله فالعلم لا ينكر فى عصرنا الحاضر مناجاة الأرواح على أنها بعض المظاهر النفسية (Psychique). ودقّة الإدراك لدنوّ الأجل يؤتاها الكثيرون حتى ليستطيع أى إنسان أن يقص مما عرف من وقائع ذلك شيئًا غير قليل. ثم إن هذه الصلة بين الأحياء والموتى، وهذه الوحدة بين الماضى والمستقبل، وحدة لا يحدُّها زمان ولا مكان، قد أصبحت مقررة اليوم وإن كنا بطبيعة تكويننا نقصُر عن استجلاء صورتها. فإذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقرّه العلم، فلا محلَّ لإنكار هذا الحادث الذى روى أبو مويهبة من أساسه، ولا محل لهذا الإنكار بعد الذى تبت من اتصال محمد النفسىّ والرُّوحىّ بعوالم الكون اتصالاً يجعله يدرك من أمره أضعاف ما يدرك الموهوبون فى هذه الناحية.

يداعب عائشة على رغم مرضه:

وأصبح محمد ﷺ فى الغداة ومرّ بعائشة، فوجدها تشكو صُداعًا فى رأسها وتقول: وا رَأساه. فقال لها وقد بدأ يُحسُّ ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة وا رأساه. لكن شَكْوَه لم يكن قد اشتدّ إلى الحدّ الذى يلزمه الفراش، أو يحول بينه وبين ما عوَّد أهله وأزواجه من تلطّف ومفاكهة. وكرَّرت عائشة الشكوى من صُداعها حين سمعته يشكو؛ فقال لها وما ضرَّك لو مُتّ قبلى فقمتُ عليك وكفنتك وصلّيتُ عليكِ ودفنتك! وأثارت هذه الدُّعابةُ غيرة الأنوثة فى نفس عائشة الشابة كما أثارت عندها حبّ الحياة والحرص عليها، فأجابت: «ليكن ذلك حظَّ غيرى. والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك». وتبسَّم النبىّ وإن لم يمكّنه الألم من متابعة الدعابة. فلمَّا سكن عنه الألم بعض الشىء قام يطوف بأزواجه كما عوَّدهن. لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدَّته. حتى إذا كان فى بيت ميمونة لم يُطِقْ مغالَبته، ورأى نفسه فى حاجة إلى التمريض. هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونة واستأذنهنَّ، بعد أن رأين حاله، أن يُمرَّض فى بيت عائشة. وأذِن له أزواجه فى الانتقال؛ فخرج عاصبًا رأسه، يعتمد فى مسيرته على عليِّ بن أبى طالب وعلى عمه العباس، وقَدَماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت عائشة.

اشتداد الحمى وخروجه ﷺ إلى المسجد:

وزادت به الحمى فى الأيام الأولى من مرضه، حتى لكان يشعر كأن به منها لهبًا. لكن ذلك لم يكن

يمنعه ساعة تنزل الحمى من أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس. وظلَّ على هذا عدَّة أيام، لا يزيد على الصلاة ولا يقوَى على محادثة أصحابه ولا خطابهم، وإن لم يحل ذلك دون أن يصل الهمس إلى أذنه بما يقول الناس إنه أمَّر غلامًا حَدَثًا على جِلَّة المهاجرين والأنصار لغزو الشام. ومع أنه كان يزداد وجعه كل يوم شدَّة، لقد شعر من هذا الهمس بضرورة التحدّث إلى الناس حتى يعهد إليهم؛ فقال لأزواجه وأهله: «هَريقوا علىّ سبع قِرَب من آبار شتَّى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم». وجيء بالماء من آبار مختلفة، وأقعده أزواجه فى مِخْضب[1] لحفصة، وصَببنَ عليه ماء القرب السبع حتى طفِق يقول: حَسْبُكم حسبكم. ولبس ثيابه وعصَب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله ثم صلى على أصحاب أحُد واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم، ثم قال: «أيها الناس أنْفِذوا بَعْثَ أسامة. فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله. وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقًا لها». وسكت محمد هنيهةً خيَّم الصمت على الناس أثناءها. ثم عاد إلى الحديث فقال ﷺ: «إن عبدًا من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله». وسكت محمد ﷺ من جديد والناس كأنما على رءوسهم الطير. لكن أبا بكر أدرك أن النبى إنما يعنى بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرقَّة وجدانه وعظيم صداقته للنبى أن يمسك عن البكاء، فأجهش وقال: بل نحن نَفْديك بأنفسنا وأبنائنا! وخشى محمد أن تمتد عَدْوى التأثر من أبى بكر إلى الناس، فأشار إليه قائلًا: على رِسْلِك يا أبا بكر. ثم أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا بابَ أبى بكر فلمَّا أقفلت قال: «إنى لاأعلم أحدًا كان أفضل فى الصحبة عندى يدًا منه. وإنى لو كنت متخذًا من العباد خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن صحبة وإخاءُ إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده». ونزل محمد ﷺ عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة، على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال:

إيصاؤه المهاجرين بالأنصار:

«يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد. وإنهم كانوا عَيْبتى[2] التى أويت إليها، فأحْسِنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مُسِيئهم».

ودخل محمد بيت عائشة. لكن المجهود الذى أنفقه يومئذ وهو فى مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأة المرض شدَّة. وأى مجهود بالنسبة لمريض تساوره الحمى يخرج بعد أن تصبّ عليه سبع قرب من الماء، ويخرج تثقله أكبر الشواغل: جيش أسامة، ومصير الأنصار من بعده، ومصير هذه الأمة العربية التى ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها. لذلك حاول أن يقوم فى غده

---

(١) المخضب: الطست.

(٢) عيبتى: خاصتى وموضع سرى. والعرب تكنى عن القلوب والصدور بالعياب، لأنها مستودع السرائر كما أن العياب مستودع الثياب.

ليصلى بالناس كما عوَّدهم، فإذا هو لا يقدر. إذ ذاك قال: مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس. وكانت عائشة تحرص على أن يؤدّى النبيُّ الصلاة لما فى ذلك من مظهر الصحة، فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال محمد ﷺ: مُروه فليصل بالناس، فكررت عائشة قولها. فصاح محمد بها والمرض يهزّه: إنَّكن صواحبُ يوسف! مروه فليصلّ بالناس. وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبى ﷺ. وإنه لغائب يومًا إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلى بالناس مكان أبى بكر. وكان عمر جهير الصوت؛ فلما كبَّر فى المسجد سمعه محمد ﷺ من بيت عائشة فقال: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون». ومن هنا ظنَّ بعضهم أن النبىَّ استخلف أبا بكر من بعده أن كانت الصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله.

ابنته فاطمة وحديثه ﷺ لها:

وبلغت به شدة المرض حدًّا آلمه. ذلك أن الحمَّى زادت به حتى لقد كانت عليه قطيفةٌ، فإذا وضع أزواجه وعوَّاده أيديهم من فوقها شعروا بحرّ هذه الحمَّى المضنية. وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم، وكان يحبها ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الواحدة الباقية له من كل عَقِبه. لذلك كانت إذا دخلت على النبىّ قام إليها وقبَّلها وأجلسها فى مجلسه. فلمَّا بلغ منه المرض هذا المبلغ دخلت عليه فقبَّلته؛ فقال: مرحبًا بابنتى، ثم أجلسها إلى جانبه وأسرَّ إليه حديثًا فبكت، ثم أسرَّ إليها حديثًا آخر فضحكت. فسألتها عائشة فى ذلك؛ فقالت: ما كنت لأفشى سرّ رسول الله ﷺ. فلمَّا مات ذكرت أنه أسرّ إليها أنه سيُقْبَض فى مرضه هذا فبكت، ثم أسرّ أنها أول أهله يلحقه، فضحكت، وكانوا لاشتداد الحمَّى به يضعون إلى جواره إناء به ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه. وكانت الحمَّى تصل به حتى يُغْشى عليه أحيانًا ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب؛ حتى قالت فاطمة يومًا وقد حزَّ الألم فى نفسها لشدة ألم أبيها: واكَرْب أبَتَاهُ! فقال ﷺ: لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم. يريد أنه سينتقل من هذا العالم عالم الأسى والألم.

أراد أن يكتب لهم كتابًا فاختلفوا:

وحاول أصحابه يومًا تهوين الألم على نفسه، فذكروا له نصائحه ألا يشكو المريض. فأجابهم: إن ما به أكثر مما يكون فى مثل هذه الحال برجلين منهم. وفيما هو فى هذه الشدَّة وفى البيت رجال قال: «إيتونى بدواة وصحيفة أكتبْ لكم كتابًا لا تَضِلوا بعده أبدًا». قال بعض الحاضرين: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحَسْبُنا كتابُ الله. ويذكرون أن عمر هو الذى قال هذه المقالة. واختلف الحضور، منهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده. ومنهم من يأبى ذلك مكتفيًا بكتاب الله، فلمَّا رأى محمد ﷺ خصومتهم قال ﷺ: قوموا! ما ينبغى أن يكون بين يدى النبىّ خلاف. وما فتئ ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئًا كثيرًا بأن لم يسارعوا إلى

كتابة ما أراد النبىّ إملاءه. أمّا عمر فظلّ ورأيه، أن قال الله فى كتابه الكريم: ﴿ما فَرَّطْنَا فى الكِتَابِ مِن شَىْءٍ﴾[١].

وتناقل الناس ما بَلغ من اشتداد المرض بالنبى ﷺ، حتى هبط أسامة وهبط الناس معه من الجُرف إلى المدينة. ودخل أسامة على النبىّ فى بيت عائشة، فإذا هو قد أُصْمت[٢] فلا يتكلم. فلما بصُر بأسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدّعاء له.

غضبه لمعالجة أهله إياه:

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسْعِفوه بعلاج، فأعدّت أسماء قريبة ميمونة شرابًا كانت عرفت أثناء مُقامها بالحبشة كيف تُعده، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمّى فصبوه فى فيه. فلما أفاق قال: مَنْ صنع هذا؟ ولِمَ فعلتموه؟!. قال عمه العبّاس: خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب. قال: ذلك داء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به!. ثم أمر بمن فى الدار، خلا عمّه العباس، أن يتناولوا هذا الدواء لم تُسْتَثْن منهم ميمونة على رغم صيامها.

وكان عند محمد ﷺ أوّل ما اشتد به المرض سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها. لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام فى خدمته واطّراد المرض فى شدّته أنساهم تنفيذ أمره. فلما أفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم: ما فعلوا بها؟ فأجابت عائشة إنها ما تزال عندها. فطلب إليها أن تُحضرها، ووضعها فى كفه ثم قال: «ما ظنُّ محمد بربه لو لقىَ الله عنده هذه». ثم تصدق بها جميعًا على فقراء المسلمين.

وقضى محمد ﷺ ليله هادئًا مطمئنًّا نزلت عنه الحمّى، حتى لكأن الدواء الذى سقاه أهله قد فعل فعله وقضى على المرض عنده. وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصبًا رأسه معتمدًا على على بن أبى طالب والفضل بن العباس. وكان أبو بكر ساعتئذ يصلى بالناس. فلما رأى المسلمون النبىّ وهم فى صلاتهم قد خرج إليهم كادوا يُفْتَنون فرحًا به وتفرّجوا. فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم. وسُرَّ محمد بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة. وأحسَّ أبو بكر بما صنع الناس، وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ﷺ، فنكص عن مصلّاه يريد أن يتخلّى لمحمد ﷺ عن مكانه. فدفعه محمد ﷺ فى ظهره وقال ﷺ: صلّ بالناس؛ وجلس هو إلى جنب أبى بكر فصلّى قاعدًا عن يمينه. فلمّا فرغ من صلاته أقبل على الناس رافعًا صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال ﷺ: «أيها الناس، سعرت النار وأقبلت الفِتن كقِطَع الليل المظلم، وإنى والله ما تَمسّكون علىَّ بشىء. إنى والله لم أحِل إلا ما أحلّ القرآن ولا أحَرّم إلا ما حرّم القرآن. لعن الله قومًا اتّخذوا قبورهم مساجد».

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨.

(٢) أصمت العليل: اعتقل لسانه.

غبطة المسلمين بظاهرة إبلاله:

ولقد عظُم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التقدم فى صحة النبىّ، حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذنه فى مسيرة الجيش إلى الشام، وَحتى مَثل بين يديه أبو بكر قائلا: يا نبىّ الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحبُّ، واليوم يوم بنت خارجة، أفآتيها؟ فأذن النبىّ له فى ذلك، وانطلق أبو بكر إلى السُّنح بأطراف المدينة حيث تقيم زوجه. وانصرف عمر وعلىّ لشئونهما. وتفرّق المسلمون وكلهم سعيد مستبشر، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتَّصل بهم من أخبار النبىّ ومرضه واشتداد الحمَّى به وإغمائه. وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه، وإن كان يحس جسمه ضعيفًا غاية الضعف، وعائشة تنظر إلى هذا الرجل الذى يمتلئ قلبها تقديسًا لجلال عظمته، وقد ملكها الإشفاق عليه لضعفه ومرضه، فهى تودّ لو تبذل له حشاشة نفسها لتردّ إليه القوّة والحياة.

الصحو الذى يسبق الموت - بل الرفيق الأعلى من الجنة:

لكن خروج النبىّ ﷺ إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذى يسبق الموت. فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت فى كل لحظة ضعفًا، وكان يرى الموت يدنو، ولم يبق لديه ريب فى أنه لم يبق له فى الحياة إلا سُوَيعات. ترى ماذا عساه كان يشهد فى هذه السويعات الباقية له على فراق الحياة؟ أفكان يستذكر حياته منذ بعثه الله هاديًا ونبيًّا، وما لاقى فيها، وما أتم الله عليه من نعمته، وما شرح به صدره من فتح قلوب العرب لدين الحق؟ أم كان يقضيها مستغفرًا ربه متوجِّهًا إليه بكل روحه على نحو ما كان يفعل كلّ حياته؟ أم كان يعانى هذه الساعات الأخيرة من آلام النزع ما لم يُبق لديه قوّة الاستذكار؟ تختلف الروايات فى ذلك اختلافًا كبيرًا وأكثرها على أنه دعا فى هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة، ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م، بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه؟ وأن رجلا من آل أبى بكر دخل على عائشة وفى يده سواك، فنظر إليه محمد ﷺ نظرًا دل على أنه يريده، فأخذته عائشة من قريبها ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستنّ به[1]؛ وأنه وقد شق عليه النزع، توجَّه إلى الله يدعوه: اللهم أعنِى على سَكَرات الموت. قالت عائشة، وكان رأس النبى ﷺ فى هذه الساعة فى حجرها: «وجدتُ رسول الله ﷺ يثقُل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخَص وهو يقول: «بَل الرفيق الأعلى من الجنة». قلت: خُيرت فاخترتَ والذى بعثك بالحق. وقُبض رسول الله ﷺ بين سَحْرى[2]. ونَحْرى ودولتى لم أظلِم فيه أحدًا. فمن

---

(١) استن به: استاك به.

(٢) السحر: الرئة، أى أنه كان مستندًا إلى ما يحاذى الرئة من صدرها.

سَفَهى وَحداثة سنى أنه ﷺ قُبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى».

أمات محمد ﷺ حقًا؟ ذلك ما اختلف العرب يومئذ فيه اختلافًا كاد يثير بينهم الفتنة، وما تؤدى الفتنة إليه من حرب أهلية، لولا أن أراد الله بهم وبدينه الحق الحنيف خيرًا.